السنة الحادية والسبعون والأربع مئة

فيها في يوم الاثنين عاشر المُحرَّم ورد سعد الدولة الكوهراني من أصفهان، وضرب على بابه بباب الطاق الطبل في أوقات الصلوات الثلاث؛ الفجر والمغرب والعشاء الآخرة، فأُنكر عليه، فقال: معي توقيع السلطان بذلك. وحضر باب الفردوس، وأخرج كتاباً معه من السلطان إلى الخليفة، فقال: لا أجتمع مع الوزير فخر الدولة وقد أُمرتُ بذلك. وظهرَتْ لوائحُ الشكوى من الوزير وكراهيته، وكان في الكتاب رسالةٌ لا يسمعها الوزير، فلم يُجِبْه الخليفةُ، وتردَّد إلى باب الفردوس أياماً، وجرى منه من سوء الأدب وخرق الهيبة ورفع الحشمة ما لا يُذكر، ثم مضى إلى دار المملكة، وجمعَ القضاةَ والشهود، وقال: اشهدوا أني سألتُ الوصول إلى الخليفة لأؤدِّي رسالةً حمَّلني إيَّاها السلطان فمُنِعتُ، وأُريد خطوطكم بهذا لأعودَ إلى السلطان وأُعرِّفَه، فيزولَ العيبُ عني. فأشاروا عليه بالتوقف والمعاودة، ووقع الخوض في ذلك إلى أن أُجيب إلى الوصول، فجلس الخليفةُ يوم الثلاثاء ثاني صفر والوزير حاضرٌ، فلمَّا حضر سعد الدولة دفع رقعةً كانت معه إلى بعض الخدم، فناولها الخليفة من وراء الشباك الحديد، فقرأها وتقدَّم بإسبال الستارة بينه وبين الجماعة وانصرفوا، وكانت مشتملةً على كراهية الوزير، والمطالبة بصرفه، وأن لا يُنفذ إلى بغداد رسولٌ من خراسان من دار الخلافة، وأن لا يكون فيها غلمان أتراك للخاصِّ ولا للخدم والأتباع، ثم أنفذ الكوهراني أصحابه إلى باب الفردوس للمطالبة بعزل الوزير، فامتنع الخليفة، وقيل في الجواب: إن فخر الدولة ما هو وزيرنا[1] وإنما الوزير ولده، وقد أنفذناه إليكم، ووالده نائبٌ عنه. ثم أنفذ سعدُ الدولة إلى رجلٍ مُعيَّن يُقال له: أبو الحسن بن دُبَّه، وكان يسكن بحريم دار الخلافة، وهو الذي تولَّى حريق مشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما، فقُبِضَ عليه، فثار الناسُ مع ابن دُبَّه، فقال الكوهراني لأصحابه: أحرقوا حريم دار الخلافة وانهبوه، واقتلوا مَنْ فيه. ثم صلب ابن دُبَّه في السماكين قريباً من الكَرْخ.

(١) في (خ): ورثا، والمثبت من المنتظم ١٦/١٩٨.

وفي يوم الاثنين النصف من صفر جاء الكوهراني وهو سكران إلى باب الفردوس، وقال: إن سُلِّم الوزيرُ إليَّ وإلَّا دخلتُ وأخذتُه، وإن كلَّمني إنسان قتلتُه. وجاء الليل، وغُلِّقت الأبواب، وأقام على حاله إلى أن مضت قطعةٌ من الليل، ثم وعد بما يريد، وعاد من الغد، وشدَّ خيله على باب الفردوس وبات هناك، وجاء الظهر والعصر والمغرب، فضُربت الطبولُ على باب الفردوس، وخاف الناسُ، ونقلوا أموالهم، فخاف الوزيرُ على الخليفة، فكتب إليه يستعفي، ومضى إلى داره، وبرز توقيع إلى الكوهراني، معناه: لمَّا علم محمد بن محمد بن جَهير ما عليه جلالُ الدولة ونظامُ الملك من المطالبة بصرفه سأل الإذن في ملازمة داره، فأذِنَّا له في ذلك، فقام الكوهراني ومضى.

وأما عميد الدولة فإنه وصل إلى أصفهان في يوم الاثنين عاشر مُحرَّم، فوجد نظام الملك على تغيُّرٍ شديد، فأظلمتِ الحالُ، وكان عميد الدولة جلداً حاذقاً، فما زال حتى أصلح الحال، واستَلَّ ما في نفس نظام الملك، فكتب الكوهراني كتابين أحدهما عن السلطان، والثاني عنه يقول: أُنهي إلينا ما فعلتَ وعبتَ عليه. فأُحضِرَ إلى باب الفردوس، وسلَّم إليه الكتابين، وعوتب فقال: ما فعلتُ إلَّا بعضَ ما أمرتني به، وإنَّني ماضٍ إلى هناك، فإني قد استُدعيتُ، وسأوقَفُ على ذلك بحضرة عميد الدولة. ثم خلع السلطان على عميد الدولة الخِلَع الجميلة، وخرج الحُجَّاب والأمراءُ يمشون بين يديه، وفي جملتهم الكوهراني، وبعث نظامُ الملك لفخر الدولة فرسين بعدَّتهما وعشرين قطعةً ثياباً؛ إظهاراً لرجوع مودَّته، وكتب معه تواقيع بما يريد الخليفة، ووصل في جمادى الأولى إلى الحلبة، وبلغَ الخليفةَ عنه ما أوحشه، فبعث إليه ورقةً بخطِّه: لكلِّ أجلٍ كتاب، وقد أعدناك إلى والدتك لِما سلفَ من خدمتك، والله سبحانه وتعالى يُحدِثُ في كلِّ يوم أمراً، لا مُعَقِّبَ لِحُكمه، ولا مراجعةَ لك بعد اليوم إلى خدمتنا. فانكفأ مُصاحباً، فمضى إلى دار ابنه بباب عمورية وكان قد خرج الناسُ لاستقباله فرحين، فعادوا متفرِّقين. ثم رتب الخليفة في الديوان أبا شجاع محمد بن الحسين نائباً[1].

(١) الخبر بطوله وبمعناه في المنتظم ١٦/ ١٩٨-١٩٩ .

وفي هذا الشهر عاد تُتُش أخو ملك شاه من حصار حلب، وعبر الفرات، ونزل بالبارعية، وكان من العقلاء الساسة، وكان مقيماً ببلاد حِيرة وبَرْذَعة، فلمَّا جرى على أتْسِز بن أوفى الخُوارَزمي بمصر ما جرى كتب ملك شاه إلى تُتُش بالمسير إلى الشام، فسار على تؤدة، فلمَّا انتهى إلى ديار بكر بلغه أن أتْسِز لم يهلك، وأنه قد أخرب الشام وقتل أهله لعصيانهم عليه، فكتب إلى السلطان بخبره، وطلب منه عسكراً، فإنه كان في قلَّةٍ من العساكر، وعرف أتْسِز، فبعث إلى السطان هدايا ومالاً وقال: ما فعلتُ فعلاً يقتضي إنفاذَ الأمير تُتُش نحوي، فإنني العبد الطائع، وأنا نائب في هذه البلاد عن السلطان، ما آخذُ منها غير ما أصرفه في مؤنتي والجند الذين معي، وأنا أحمل في كل سنة إلى الخزانة ثلاثين ألف دينار. فكتب السلطان إلى تُتُش أن لا يتعرَّض إلى الشام الأعلى، ويقصد ناحية حلب، وبعث إليه الأمير الأفشين وصُرَّق الحاجب بمن معهما من التركمان، وكان الحاجب أيتكين قد انضمَّ إليه إلى تُتُش من ديار بكر، ثم عبروا الفرات، وبدؤوا بمنبج، فحصروها وأخذوها، وأقاموا عليها شهوراً، وكان صاحبها سابق بن محمود، وجاءهم مسلم بن قريش نجدةً، واستدعى السلطان الحاجب أيتكين إليه بسؤال مسلم؛ لأنه كان عدوَّه، وتحالفت بنو كلاب على قتال الغُزِّ ودفعِهم عن البلاد، وكان مع مسلم غِلالٌ كثيرةٌ له ولأصحابه، وكان بحلب غلاء شديد، فباعهم، فعاتبه تُتُش وقال: أنتَ أتيتَ في مساعدتي عليهم أو في نفوسهم؟ ارجعْ إلى أعمالك، مالي إليك حاجة. فعاد إلى سنجار، ولقي عليها بهاء الدولة من أمراء التركمان نجدةً لتُتُش، فخوَّفه المسيرَ من بني كلاب، فلم يلتفِتْ، وقطع الفرات، ونزل وادي بزاعة، فقصدته بنو كلاب وجماعةٌ من بني عقيل، فأوقعوا به، ونهبوه، وقتلوا معظم أصحابه، وبلغ تُتُش، فخرج من حلب يريد بني كلاب، وترك أثقاله على حلب، فخرج أهلُها، وقتلوا جماعةً من أصحابه، وانصرف التركمان عنه، وعبروا الفرات، وجاء إلى بزاعة، فعبر الفرات يريد أعمال مسلم؛ لأنه اتَّهمه، فوجده قد جمع واستعدَّ، فسار إلى ديار بكر، فاجتاح أعمال نصر بن مروان، وأقام بها يُخرِّبها وينهبها، وينفق الأموال في العساكر، وكتب تُتُش إلى ملك شاه يعرِّفه الأحوال، ويطلب نجدته.

وفي شوال ورد خطلج أدراز من باب السلطان، مضى إليه وطلب مالاً ينفقه في طريق الحج، فلم يُعْطِه شيئاً، فعاد وقد اجتمع ببغداد جماعةٌ لِيمضوا في صحبته، فامتنع مَنْ لم يكن معه ما يبلغه، ونَجَمَ[1] من أعطى أجرة الجمال ومال الخفارة، وأخذوا من الخُفراء الرهائن، وأعطاهم من الحاجِّ ما قرَّره لهم، وسار معهم كالمودِّع، ونَجَمَ وعاد سالماً إلى الكوفة مستهلَّ ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين، وكانت العرب قد ذلَّتْ له وأطاعتْه لشهامته، ونفى بني خفاجة عن البلاد، ووحَّد الخطبة بمكة لصاحب مصر، وكان القحط شديداً وليس لهم مؤونة إلَّا من مصر، فاجتمع بابن أبي هاشم، وكان مائلاً إلى بني العباس وأهله آل أبي طالب، فاعتذر إليه وأنه لم يقدِرْ على المنع مع انقطاع ما كان يحمل إليه من المال كلَّ سنة، وإدرار المال والغِلال من مصر، فقال خطلج: المال يأتيك عن قريب. ووحَّد الخطبة بالمدينة لصاحب مصر، وكان خطلج قد أساء عُشرة الحاجِّ وعاقهم، وأخذ من كلِّ حملٍ عن الخفارة تسعين ديناراً، ومن كلِّ راجل خمسةَ دنانير، ومن كلِّ واحد عن زيارة قبر رسول الله ﷺ ستة دنانير.

وفي ذي القعدة وقع الرضا عن عميد الدولة ابنِ جَهير وعودِه إلى الخدمة، وسببه كتاب نظام الملك إلى الخليفة يشير بردِّه، وأنَّ أحداً لا يقوم مقامه، وإنني ما رضيتُ عنه، وزوَّجتُه بولدي، ورميتُ كلَّ عداوة كانت من جهتي، وصافيتُه، إلَّا لقُربه من الخدمة، وكان نظامُ الملك دائماً يثني على عميد الدولة؛ يقول: ما أحسِدُ أحداً إلَّا فخر الدولة على ولده. ويصفه بالعقل والحلم، وانقطع أبو شجاع عن الديوان، ورتَّب على باب الحجرة مجلساً كلَّ يوم ينهي الأمورَ إلى الخليفة، ويخرج إليه الأجوبة، ثم أذن للوزير فخر الدولة فَتْحَ بابِهِ، ففتح، ودخل الناس عليه للتهنئة، حتى النساء، ثم استدعى الخليفةُ ولدَه فشافهه بما طيَّب به نفسَه، وكتب له توقيعاً منه: إنَّ أمير المؤمنين يرى من أخبار رسوم مواهبه وآلائه، وأحلى مذاق النعمة عند المتمسكين بشروط مسابغته، وولاية واختصاص مَنْ أحسن الطاعة في إثر يومه وأمسه، وتخشَّن على أعداء الدولة وَقْعَ مسِّه ولمسه، ولمَّا عدوتَ يا عميد الدولة منفرداً في الكمال بما عُلِمَ كونُكَ ممَّن لا يُجارى فيه، ولا يُبارى في إحراز وافيه، وأنك قد حُزْت هذه المرتبة، فُقْتَ

(١) نَجَمَ: طَلَع وظَهرَ. اللسان (نجم).

السبق، وقُمتَ فيها بالحق، أعاد أمير المؤمنين من وزارتك ما كان قد تجاوز في الإعراض حدَّه، مما لا يستطيع الجاحدُ جحدَه، وذكر كلاماً آخر.

وفيها مات أبو الفضل بن التركماني، صاحب سعد الدولة الكوهراني، وكان شِرِّيراً، إلا أنه انحدر إلى واسط مع سعد الدولة، وكان ابنُ فضلان اليهودي ضامنُ ضياع الخليفة قد فعل بالمسلمين كلَّ قبيح، وصادرهم، ومدَّ يده إلى حريمهم، وكان إذا كتب فيه إلى الخليفة لا يُؤخذ لأحدٍ بيد، فقتله ابنُ التركماني بواسط، وأخذ منه عشرة آلاف دينار، وعزَّ ذلك على الخليفة، وكتب إلى نظام الملك بسببه، ولمَّا مات ابنُ التركماني رآه إنسان في المنام، فقال: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: غفرَ لي. قيل: بماذا؟ قال: بما أزَلْتُ عن المسلمين بقتل ابن فضلان اليهودي من النصرة، وعن الخلافة من المعرة، وابنُ التركماني هو الذي قتل ابنَ دُبَّة النوبي الذي أحرق المشهد، وصلبه بالسماكين.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وفي سنة إحدى وسبعين خرج من مصر عسكر كبير مع نصير الدولة الجيوشي، ونزل على دمشق محاصراً لها، واستولى على أعمالها وعلى فلسطين، فاضطرَّ أتْسِز إلى مراسلة تُتُش بعده بتسليم دمشق ويكون في الخدمة بين يديه، فتوجَّه نحوه، وبلغ نصير الدولة قُربَه، فرحل إلى الساحل، وكان ثغر صور وطرابلس في يدي قاضيهما قد تغلَّبا عليهما، ولا طاعة عليهما لأمير الجيوش، بل يصانعان الملوك بالهدايا، ووصل تُتُش إلى مرج عدرا، فخرج إليه أتْسِز بعد أن استخلفه، وسلَّم إليه دمشق، فدخلها، ولاحَتْ له من أتْسِز أماراتٌ استوحش منها، فقبض عليه واعتقله، وقتل أخاه أولاً، ثم خنقه بوتر قوسه غدراً منه في ربيع الأول، واستقام الشام لتُتُش، ثم مضى إلى حلب فنازلها، وأقام عليها أياماً، ثم رحل عنها، وقطع الفرات مشرقاً، ثم عاد إلى حلب في ذي الحجة، وملك حصن بزاعة والبيرة، وأحرق ربض أعزاز، ورحل عنها عائدا إلى دمشق. وغيرُ ابنِ القلانسي يقول: كان ذلك في السنة الآتية، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

إبراهيم بن علي بن الحسين[١]

أبو إسحاق، شيخ الصوفية بالشام، ولد سنة أربع وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وأقام بصور أربعين سنة، وبها مات، وكان صدوقاً ثقة.

الحسن بن أحمد بن عبدالله[٢]

أبو علي، ابن البنَّاء، الحنبلي، ولد سنة سبع وتسعين وثلاث مئة، وتفقَّه على ابن الفرَّاء، وصنَّف في كلِّ فن، وكان يقول: صنَّفتُ خمس مئة مصنف، وسمع الكثير، وكان له حلقة بجامع القصر مقابلة مقصورة الخطيب يفتي فيها ويُقرئ الحديث، وتوفي ليلة السبت خامس شهر رجب، وصلَّى عليه أبو محمد التميمي، ودُفن بمقبرة باب حرب، واتَّفقوا على فضله وصدقه وزهده وورعه، وتكلَّم فيه ابنُ السمعاني ولا يُسمع منه.

الحسين بن عَقيل[٣]

ابن محمد بن[٤] علي بن ريش، الدِّمشقي، تُوفِّي في جمادى الآخرة، ودُفن بباب الصغير، وكان ثقةً، ومن شعره: [من الطويل]

ولـمَّـا حـدا الـبَـيـنُ الـمُـشـتِّـتُ شـمـلَـنـا ... ولـم يَـبْـقَ إلَّا أن تُـنـائـي[٥] الأيـانـقُ
ولـم نـسـتـطِـعْ عـنـد الـوداعِ تـصـبُّـراً ... وقـد غـالَـنـا وَجْـدٌ عـن الـدمـعِ نـاطـقُ
وقـفـنـا [لـتـوديـعٍ][٦] فـكـادَتْ نـفـوسُـنـا ... لأجـسـادِنـا قـبـلَ الـفـراقِ تُـفـارِقُ
فـبـاكٍ لـمـا يـلـقـاهُ مـن فـقـدِ إلْـفـهِ ... وشـاكٍ لـهُ قـلـبٌ بـهِ الـوجْـدُ نـاطـقُ

---

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٦١-٦٣ .

(٢) المنتظم ١٦/ ٢٠٠-٢٠١ ، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٢-٣٣ ، والكامل ١٠/ ١١٢ ، ومعجم الأدباء ٧/ ٢٦٥-٢٧٠ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٣٨٠ .

(٣) تاريخ دمشق ٤/ ١٠٣-١٠٤ ، ومعجم الأدباء ١٠/ ١٢٤-١٢٦ .

(٤) تحرفت في الأصل (خ) إلى: أبو، والمثبت من المصدرين السابقين.

(٥) في معجم الأدباء: تُثار.

(٦) مابين حاصرتين سقط من (خ) واستدرك من معجم الادباء.

سعد بن علي[١]

ابن محمد بن علي بن الحسين، أبو القاسم، الزَّنجاني، الحافظ، الصوفي، ولد سنة ثمانين وثلاث مئة، وطاف البلاد، وانقطع في آخر عمره بمكة، وصار شيخ الحرم، ولمَّا عزم على الإقامة بمكة والمجاورة بالحرم عزم على نفسه نيِّفاً وعشرين عزيمة من المجاهدات والعبادات، ففعل الجميع، ومات بعد ذلك بأربعين سنة، ولم يُخِلَّ منها بعزيمة واحدة.

وقال أبو المظفر بن السمعاني جدُّ صاحب «الذيل»: كنتُ على عزم المجاورة بمكة، فرأيتُ والدتي في المنام وكانت بخراسان، وقد كشفتْ رأسها وهي تقول: باللهِ عليك ولدي، لا تُجاوِرْ، ارجِعْ إليَّ فلا صبرَ لي على فراقك. فانتبهتُ مغموماً، وتردَّدتُ بين المقام والرجوع إليها، فقلت: لابُدَّ أن أشاور أبا القاسم الزَّنجاني، فأتيتُه وعنده خلقٌ عظيم، وكان إذا خرج من بيته ترك الناسُ الطوافَ بالبيت، وقبَّلوا يديه أكثر مما يُقبِّلون الحجر الأسود، فتقدَّمتُ إليه وقد قام ليدخل بيته، فمشيتُ إلى جانبه ولم أُكلِّمْه، فالتفتَ إليَّ وقال: يا أبا المظفر، العجوزُ تنتظرك. ولم يَقُلْ غيرَ هذا. فخرجتُ مع الحاجِّ إلى مرو، واجتمعتُ بوالدتي، ولمَّا مات بمكة أميرُها محمد بن أبي هاشم ما كان في الحرم من يُستحى منه غير هذا الشيخ. وكان إماماً، حافظاً، ورعاً، زاهداً، عابداً، مفتياً، وكان ينشد لغيره[٢]: [من الخفيف]

ما تطعَّمتُ لذَّةَ العيشِ حتى ... صِرْتُ للبيتِ والكتابِ جليسا
ليس عندي شيءٌ أعزَّ من العلْـ ... ـمِ فلا أبتغي سواه أنيسا
إنَّما الذُّلُّ في مخالطة النَّا ... سِ فدَعْهُمْ تعِشْ عزيزاً رئيسا

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٦٦-٢٦٧ ، والمنتظم ١٦/ ٢٠١ ، وتاريخ دمشق ٢٠/ ٢٧٣-٢٧٥ ، والأنساب ٦/ ٣٠٧ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٣٨٥ .

(٢) وهو علي بن عبد العزيز الجرجاني كما في صفة الصفوة، وشذرات الذهب ٣/ ٥٦-٥٧ ، ومعجم الأدباء ١٤/ ١٩ ، وغيرها من المصادر.

[وفيها توفِّي]

محمد بن علي[١]

أبو عبدالله بن المهتدي، الهاشمي، ويُعرف بابن الحَنْدَقوقي، سمع الحديث، وكان يسكن بباب البصرة، ومات في ذي الحجة، ودُفِنَ في داره، وكان صحيحَ السماع ثقةً.

السنة الثانية والسبعون والأربع مئة

فيها وقف العميد أبو نصر القريةَ المعروفةَ بالمالكية من طريق خراسان على مشهد موسى بن جعفر عليهم السلام، وكان مُحبًّا للعلويين، يقضي حوائجهم، وزوَّجَ عدداً منهم، وخَتَنَهم[٢]، وخرج في ثالث مُحرَّم إلى أصفهان، وبعد خرجه تُوفِّيت والدة فخر الدولة ابنِ جَهير بباب العامة، وحُمِلت إلى تربة الرُّصافة، فدُفِنت بها ليلاً، وتبعها الخدم والحواشي.

قال محمد بن الصابئ: في ربيع الآخر وصل الأمير تاج الدولة تُتُش إلى دمشق وملكها.

ذكر القصة: كان بدر الجمالي قد سيَّر من مصر إلى دمشق الجيوش من العرب والغُزِّ والأكراد والصنهاجة والبربر والسودان وبني خفاجة، والأمير عليهم غلامٌ له متقدِّمٌ عنده، والأمر مردودٌ إلى أبي الفرج المصري، فساروا إلى دمشق، وحصروا أتْسِز، فأرسل إلى تُتُش وهو يحاصر حلب يستنجده، فرحل والأفشين معه، وبلغ العسكر المصري، فتأخَّر إلى الرملة، ووصل تُتُش إلى دمشق، وخرج إليه أتْسِز فقبض عليه وقتله، واستولى على البلد، فاستوحش الأفشين منه، فعاد هارباً، فنهب المعرة وكفر طاب ورفنية، وذهب إلى أنطاكية فأخرب وقتل ونهب، وصانعه أهلُها على ثلاثين ألف دينار، وجرت فيها قصص، ولم يعطوه شيئاً، وراسلوا تُتُش وضمنوا له مالاً، وكان في قلبه منه، فسار يطلبه، فهرب إلى ديار بكر، وعاد تُتُش إلى دمشق، وأظهر العدل،

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٠٤.

(٢) ختنهم: صاهرهم.